

## وقفات تربوية من سورة الحج



الأحد 9 يونيو 2024 05:35 م

ما أوحى المسلم إلى يتزود منها بزياد عينه على استكمال الطريق إلى رب العالمين، حيث الخلوة والركون إلى جنبه وظهور الضعف والذلة عليه في وسط الخضوب والدروب التي يسلكها، حيث تأتي أيام وليالي ذي الحجة التي تحمل بين طياتها النفحات والرحمات، حيث فيها أيضا فريضة عظيمة هي فريضة الحج.

فكلما حل شهر ذي الحجة من كل عام استراحت القلوب وتطلعت العيون إلى بلد اصطفاها الله سبحانه وتنزلت في جنباتها آيات القرآن، حاملة بالتكبير والتهليل، متخففة من متاع الدنيا، ليس عليها من لباس الدنيا إلا القليل متذكرة لقاء ربه، باكية عيونها، صارخة بعجزها أمام ربه، فلربما تعود وقد غفر الله لها.

والمأمل في سورة الحج التي زينت القرآن بتعاليمها، نجدها قد ابتدأت بمطلع عنيف منزل لكيان كل إنسان، يخيف القلوب، وتطيش له العقول من هول الساعة التي سيقف فيها بين يدي ربه، وكأنها تعمل على استخلاص القلوب وتنقيتها قبل الإقدام على الاستعداد لأداء فريضة الحج، والتي تتشابه في وقتها مع وقفات يوم الحشر الأعظم، قبل أن يأتي الأمر الرباني للمؤمنين بإحسان الركوع والسجود والعبادة وفعل الخيرات لعلهم يفلحون.

لماذا فرض الله الحج؟

الحج ليس فريضة فحسب بل تتجلى فيه العبر التي تحث الإنسان على معرفة الطريق. ففيه تذكير بيوم تشييب فيه الولدان، كما يذعن الإنسان بعبوديته المطلقة لله سبحانه.

ولقد أكدت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على أن الله سبحانه لم يفرضه لإرهاق عباده، أو تقديس لمكان، بل فرضه لتحقيق غاية فردية للإنسان ومصالح اجتماعية بين المسلمين، وهو على من استطاع إليه سبيلا، قال تعالى: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ حَيْثُ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} [آل عمران:97].

وقال تعالى: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} [سورة الحج:27].

وعن عبدالله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [بَيَّنَّ الْإِسْلَامَ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ] (البخاري).

وقد وضع الشرع الحنيف الحكمة التي تعود على الفرد بقوله صلى الله عليه وسلم: [مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ] (البخاري).

وكما أن لكل عبادة فضلها على المسلم فالحج بمثابة غفران لكل ذنوبه إذا كان خالصا لله، ومن مال حلال، ولم يرتكب فيه مآثم ومخالفات (1).

أهمية الحج للمسلم

الحج شأنه شأن باقي الفرائض التي افترضها الله على عباده، ويرجى منها فوائد كثيرة تعود على المسلم في حياته وفي آخرته.

فالحج مدرسة تربوية ربانية تصقل تسليم المسلم لأوامر ربه وتعظيم شعائره، وتساعد المسلم على تحقيق الإخلاص والتجرد والتواضع والتكافل والتراحم، وتطهير النفس، والتدريب على مجاهدة النفس، والخشية من الله خوفا ألا يقبل الله حجه، وشكر الله على نعمه التي لا تعد ولا تحصى.

بالإضافة لتربية النفس الإنسانية، وتهذيبها، وتجديد الإيمان فيها، وتجديد العهد مع الله، وتحقيق معنى العبودية لله وتنفيذ أوامره.

هذا غير مغفرة الذنوب والعودة من الحج كيوم ولدته أمه، وإزالة ما علق بالنفس منها من حظوظ الدنيا وأمراضها. فعن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: [أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهَجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟] (مسلم)(2).

سورة الحج ومصير المتكبرين والمشككين

سورة الحج من السور التي جمعت ما بين مكى ومدني، حيث نزلت بعض آياتها في مكة والبعض في المدينة. وجمعت طيفا عجيبا من التعاليم والأحكام الربانية خاصة الحج. كما جمعت كثيرا من المقاصد بين آياتها.

يقول هبة الله بن سلامة (المفسر البغدادي الضرب): هي من أعاجيب سور القرآن؛ لأن فيها مكيًا ومدنيًا، وحضرًا وسفريًا، وحربيًا وسلميًا، وليليًا ونهاريًا، وناسخًا ومنسوخًا.

لقد جمعت السورة الكثير من المقاصد كمخاطبة الناس بتقوى الله والحذر من يوم الجزاء وأهواله التي تشييب منها الولدان، وعاقبة المتكبرين والمشككين والمتربصين، وتصوير حال المسلمين وضعفهم والإذن لهم بالدفاع عن عن أنفسهم ضد أي اعتداء لحماية حرية العقيدة وحرية العبادة(3).

ولم تغفل السورة أن تلقي الضوء على مصير كل بانس متكبر على الله، ومن يعبد الله على حرف فله الإهانة وعدم الإكرام، قال تعالى: {ثَانِيًا يُعْطِيهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَئِذَا فِي الدُّنْيَا جُرِي فِي وُدْيِهِ يُؤْمَرُ الْفِتَامَةَ عَذَابَ الْحَرِيقِ} [الحج:9]. والتعبير يرسم صورة لهذا الصنف من الناس، صورة فيها الكبر المتعجرف (ثاني عطفه)، هذا الكبر الصال المضل لا بد أن يجمع ولا بد أن يحطم.

ثم تنتقل الآيات لمقصد آخر ونموذج آخر من الناس ذلك الذي يزن العقيدة بميزان الريح والخسارة، ويطننها صفقة في سوق التجارة: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْغِزُ اللَّهَ عَدُوًّا حَرِفٍ).

وعن شعيرة الحج أراد الله منها الإخلاص والتوجه إلى الله تعالى، وسنة الأخذ بالأسباب (عليك النداء وعلينا البلاغ)، والخضوع والاستسلام والإذعان التام لله. وهي الآيات من قوله تعالى: (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ) [سورة الحج: 26] حتى: (لَنْ يَتَّالِ اللَّهُ لُخُومَهَا وَلَا يَمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَتَّأَلُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ) [سورة الحج: 37] (4).

الحج وتربية الضمير

ربى الحج في النفوس المؤمنة تربية الضمير والمراقبة، فعلى الرغم من الملايين التي تقف في صعيد عرفات إلا أنه عُرس فيه غض البصر وحياة الضمير فلا ينشغل الرجال بالنظر للنساء، ولا النساء بالنظر للرجال، في الحج بل تنصهر القلوب بعظمة المراقبة. والحج أيضاً سبيل لإيقاظ ضمير كل من تسول له نفسه سرقة متاع أو اعتداء على أحد.

يقول الدكتور محمد راشد المري (الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بقطر): (إنَّ الضميرَ هو مستودعُ السرِّ الذي يكتُمُه القلبُ، والباطنُ الذي يسكنُ النفسَ؛ فيُضيءُ ظلمتَها ويُبَيِّرُ جوانِبَها، وهو القوةُ التي تدفَعُ نحوَ فعلِ الخيراتِ وتركِ المنكراتِ وحبِّ الصالحاتِ، وهو سببُ تسميةِ النفسِ باللواحِةِ).

وضمير الإنسان إذا لم يكن موصولاً بالله، فإنه سيأتي يوماً ويعرض ذلك الضمير للبيع في سوق الحياة، وعندما يباع الضمير ستجد صاحب يخون صاحبه، والموظف يمد يده، والعالم يبيع دينه، والقاضي يحابي حاكمه.. وفي الحج تربيةً لتلك الضمائر لتحيى وتستيقظ من غفلتها (5).

أبجديات تربية

الشريعة الإسلامية تعتبر مدرسة تربية لكل من نهل منها وأخذ بما جاءت به، والحج أحد هذه الأركان المهمة التي سطرت أبجديات تربية كثيرة، ومنها:

– تعظيم شعائر الله: فالمسلم لابد له من تعظيم جميع شعائر الله وإحيائها بين الناس، من يأتي إلى الحج يعظم كل شعيرة من شعائره حتى يعود وقد قبل منه حجه.

– حرص من خرج حاجاً لله أن يخلص في كل عمل يقوم به منذ الإعداد للرحلة حتى يعود منها، فلا يبتغي بحجه إلا وجه الله سبحانه، وهذه إحدى أبجديات الحج التربوية، يقول سفيان الثوري: (ما عالجت شيئاً أشدَّ عليّ من بيتي؛ لأنها تنقلب علي).

– أيضاً تربية النفس على الالتزام بالنظام والانضباط السلوكي عن طريق الالتزام الفردي والجماعي لحركة الحجج وتنقلاتهم.

– الحج فيه تربية للحاج، التربية الإيمانية السليمة ففي قيام الإنسان بالحج إلى بيت الله الحرام، وأدائه الصحيح لشعائره ومناسكه تربية سليمة (6).

الحج ووحدة الأمة

يأتي الحج من كل عام ليجدد وحدة الأمة وتماسكها، رغم ما يحاك لها لإضعافها، وهو ما يتضح في كلمات المبتسّر “وليم جيفورد بالكراف: (متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية بعيداً عن محمد وكتابه).

فمن مقاصد الحج الرئيسية هي زيادة التعارف والتكافل وتجديد وحدة المسلمين، هذه الوحدة التي يجب على الأمة أن تستثمرها بعدما تنتهي شعائر الحج. فالحجج سفراء لبلادهم في هذا المكان الطاهر، وعليه تحل كثير من المشاكل بين البلاد الإسلامية في جو من الألفة والمحبة وتغليب مصالح الأمة عن مصلحة شعب أو فرد.

فالحج فرصة عظيمة لو استطاعت الأمة من شرقها لغربها في التكامل والتكافل والوحدة.

وسائل عملية للإعداد للحج

الحج وإن كان للقادرين من المسلمين، إلا أن المسلم باستطاعته إعداد مخطط له وترتيبات ربما تساعد وتسهل له توفير نفقات الحج. بأن يدرج من ماله جزءاً مهماً كان يسيراً بحسب ظروفه المالية ويضع ما يدرجه في صندوق.

أيضاً العمل على تعليم شعائر الحج الصحيحة حتى لا يقعد في محذور شرعي أو ينسى ركناً من أركان الحج.

الترتيب للسفر مع مجموعة مصاحبة، فإنها تشجع على المضي قدماً، وتوفر في نفقات السفر والطعام، وتسهل عملية الانتقال والسكن (7).

كيف أشارك الحجج؟

كثير من المسلمين تهفو قلوبهم لبيت الله الحرام إلا أن الظروف قد تمنعهم، إلا أن الشرع أفسح المجال لكثير من الأعمال لمشاركة الحجج نواب جههم، مثل جبر الخواطر وقضاء حوائج الناس، قال الحسن: لأن أفضي لمسلم حاجة أحبّ إليّ من أن أصلي ألف ركعة.

أيضاً بر الوالدين والمواظبة على الأعمال الصالحة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ما من أئامٍ العملُ الصَّالحُ فيها أحبُّ إلى اللَّهِ من هذه الأئام يعني أئام العشر] (رواه أبو داود).

تلمس الفقير والمسكين والتصدق عليه فالصدقة تطفئ غضب الله سبحانه وتعالى وتمحو الخطايا.

أن يكون لك مجال مع القرآن الكريم وتعاليمه وما جاء فيه من أحكام الحج وأوامر الله سبحانه، وكثرة التسابيح والمحافظة على الصلوات، والقول الطيب الحسن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم الأضحية لمن استطاع.

ماذا بعد الحج؟

ماذا بعد الحج كماذا بعد رمضان، يجب على المسلم الذي رزقه الله حج البيت الحرام أن يحافظ على علاقته بربه، كما يحافظه على ثوبه وصفحته بيضاء كما رجح من الحج، فلا يسودها بالكبائر أو الذنوب. فزيارة بيت الله خط فاصل يجب ألا يكون ما قبلها مماثلاً لما بعدها.

ومن لم يحج فعليه المحافظة على ما يُقام في العشرة أيام الأول من ذي الحجة من طاعات وتلاوة للقرآن والمحافظة على الصلوات في جماعة، ورحمة الفقراء والمساكين، والعمل على وحدة الصف وعدم إثارة الفتن، وإقامة العدل بين الناس.